

الفصل الثالث

النهضة في ألمانيا

الألمان أدب قوى عزيز ، لكنه لا يستمد قوته — كغيره من الآداب — من طائفة من الأعلام البارزين ، بل يستمدّها مما بينه وبين الشعب الألماني من صلة وثيقة لا تجد لها مثيلاً في سائر الشعوب ؛ فللأمة — عادة — تراث ضخم من الشعر الشعبي والقصص الشعبي ، يعبر بها العوام عن أمانيتهم وآلامهم الفطرية التي لم تصقلها المدنية ولم تشذبها يد التهذيب ؛ ولكن كلما سارت المدنية شوطاً إلى الأمام وكبحت جماح الدوافع والنوازع الفريزية الفطرية ، ازداد الناس نفوراً من أدبهم الشعبي ليلتمسوا التعبير عن عواطفهم عند الأدباء المحترفين ، وفي ذلك بالطبع تكلف وتصنع ، ولهذا ترى في تاريخ الأدب حيناً بعد حين جماعة من المصلحين تضيق صدورهم بهذا النفاق المصطنع فتنادي بضرورة العودة إلى الأدب الشعبي أو ما يماثله بساطة وصدقاً ، كما حدث في أول القرن التاسع عشر في إنجلترا .

أما في ألمانيا فلم تنفصم قط تلك الروابط الوثيقة التي تصل قلوب الناس بالشعر الشعبي والأساطير القومية ؛ ومن هنا كان الشعر في ألمانيا عاملاً قوياً في تكوين عواطف الشعب ونزعاته العقلية ، ومن هنا أيضاً كاد الأدب الألماني قبل نهاية القرن الثامن عشر لا يسترعى أنظار العالم لشعبيته الصميمة ، وكان البحث في تطور الأدب الألماني أمراً شاقاً عسيراً على مؤرخي الأدب من غير الألمان .

ولاشك أن مشكلة اللغة كانت قوية الأثر في هذه الظاهرة التي بسطناها ؛ فقد جاء القرن السادس عشر ولما ترجع إحدى اللهجات الألمانية على سواها فتصبح لغة قومية معترف بها ؛ ولعلك تذكر أن الدويلات الألمانية لم تنصهر في وحدة سياسية إلا منذ عهد قريب ؛ فكان من الطبيعي أن تتنافس الدويلات في السيادة اللغوية كما تتنافس في السيادة السياسية ، ولم يكن يسيراً على دويلة منها أن تفرض لسانها على سائر الأجزاء .

مارتن لوثر :

جاء لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) والحالة كما رأيت ، فلما هم بترجمة الإنجيل إلى الألمانية ، وجد اللغة السكسونية أوسع اللهجات انتشاراً في الخطابات الرسمية بين الدويلات ، فاستخدمها في الترجمة ، وبذلك أصبحت لغة ألمانيا الوسطى لغة قومية أدبية .

ولذلك لا نجد في التاريخ كله رجلاً اجتمع في شخصه ما اجتمع في شخص لوثر من قوة في توجيه أمته في السياسة والأدب والدين في آن معاً ؛ ولسنا ندري هل استطاع لوثر أن يكون قوة دافعة في الدين والسياسة بسبب براعته الأدبية ، أم كان في مقدوره أن يبلغ ما بلغ من الزعامة بغيرها ؛ وكذلك لا ندري إن كانت اللهجة الألمانية في مقاطعة سكسونيا قد بسطت سيادتها وأصبحت لغة أدبية قومية بسبب زعامة لوثر الوطنية ، أم تلك نهاية كان لابد منها ولم يكن لوثر إلا معجلاً بها ؟ ومهما يكن من أمر فقد شاء القدر أن يظهر في ألمانيا المفكر في القرن السادس عشر بطل قومي وزعيم ديني وأديب ممتاز هو « مارتن لوثر » . ثم شاءت الظروف القائمة أن يكتب « لوثر » بلهجة معينة دون سائر اللهجات الألمانية ، فلم تلبث أن أصبحت لغة البلاد الأدبية القومية ؛ وإن هذا لم يذكرنا بما صنعه دانتى حين كتب باللهجة « التسكانية » ففرضها بذلك على سائر اللهجات ، وأصبحت بفضلها لغة إيطاليا الأدبية ؛ كما يذكرنا كذلك بما تم على يدي « شوسر » في إنجلترا حين أنشد شعره باللغة الشائعة في جنوبي إنجلترا بالقرب من لندن ، فسرعان ما طغت على سائر اللهجات في البلاد واعترف بها الجميع لساناً قومياً .

استحق « لوثر » مكانته في الأدب لترجمته الإنجيل ، إذ أراد بهذا الصنيع أن يقرب بين الناس وبين كتابهم المقدس حتى تنزعزع سلطة رجال الدين الذين تفردوا عندئذ بقراءة الإنجيل في لغته العبرية ، فلم يكن في وسع الشعب إلا أن يستعين بهم في فهم الكتاب وأحكامه ، أما وقد نُقل الإنجيل إلى لغة يفهمها الناس ، فقد بات يسيراً على الزارع أن يتغنى بآياته وهو يفلح الأرض ، وأن يترنم بأنعامه الصانع وهو إلى جانب مغزله ؛ ورب معترض يقول : وهل عرف الدهاء في ذلك العهد القراءة حتى يقتنوا الإنجيل ويطالعوه ؟ والجواب على ذلك أنهم إن لم يقرأوا هم أنفسهم فسيبهم أن يفهموا ما يسمعون ؛ والعجيب

في أسر لوثر أنه استطاع أن يكتب نثرًا سلسًا مستساغًا ، برغم ما عرف عن النثر الألماني حتى في العهود التالية له من غموض وتقييد .

ومما نذكره للوثر في عالم الفن أنه كمعظم معاصريه ، من أميرهم إلى حقيرهم ، قد ألمّ بقواعد الموسيقى واشتهر ببراعته في العزف على « العود » ؛ وقد أنشد طائفة من الترانيم تميزت بقوة إنشائها ، ولسله لحنها بعد الأنشاء ؛ وأشهر هذه الترانيم ترنيمة عنوانها « إلهنا حصن منيع » .

وهي مستوحاة من الزمار السادس والأربعين من مزامير داود ، ولما كان البروتستانت لا يزالون إلى اليوم يرددونها في صلواتهم فها نحن ننقأها للقارىء :

« إلهنا حصن منيع ، درع متين ، سيف ماض ، إنه سينقذنا من كافة الآلام التي تطوقنا . إن شيطان الشر العتيق يتربص بنا اليوم الدوائر ، فتحيك قوته العاتية ومكره الشديد دروعه الخفيفة . إن العالم لم يشهد له مثيلا .

إن قوتنا لا تجدى ، فسرعان ما تنزل بنا الهزيمة ، ولكنه يحارب من أجلنا ، ذلك البطل الذي اختاره الإله نفسه . أتريد أن تعرف اسمه ؟ إنه اليسوع عيسى ، سيد الجيوش ، الذي ستظل له الغلبة دائما .

إذا امتلأ العالم بالشياطين ، وأرادت أن تبتلعنا ، لم نستشعر أى خوف ، لأننا واثقون من النصر . فسيد هذا العالم (الشيطان) بالرغم من جهامة وجهه لن يمسنا بسوء . لماذا ؟ لأن الأمر قد بت فيه ، فكلمة واحدة تقصمه .

و « الكلمة » بمنأى عن أيدي الشياطين ، ونحن نتجدهم أن يمسوها ف « هو » الذى معنا بروحه ونعمه . فإذا سلبونا أجسامنا وأموالنا وسعادتنا وأطفالنا ونساءنا لم نكثر لشيء . إنهم لن ينجنوا من ذلك شيئا ، وأما نحن فسيبقى لنا الملاكوت » .

« شعراء الغناء » Meistersinger

كان لوثر في عصر النهضة الألمانية عالما بارزا ، وكان الإصلاح الدينى عنده شغلا شاغلا ؛ لكن لوثر والإصلاح الدينى لم يكونا كل شيء ، في عصر النهضة فى ألمانيا ؛ إذ ازدهر الشعر فى موضوعات من الحياة الدنيوية ، وكان القائمون به نقابات العمال والصناع

كما ساهم في إنشاده بعض السادة والفرسان ؛ وقد سارت تلك الطائفة من « شعراء الغناء » على النهج الذي كان قد رسم أصوله « شعراء الغزل »^(١) في ألمانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ وكان الشعر عند هؤلاء الشعراء موضوع جسد لا يأخذونه مأخذ الالهو والتسليمية ؛ ولم يكن الشاعر ليحشر في زمرة « شعراء الغناء » إلا إذا أقام الدليل على براعته في ابتكار الألفاظ والأنعام ، ولم يكن نجاح الشاعر في هذا بأقل شأنًا من تفصيل الرجل فارساً أو منح الطالب شهادته الجامعية ؛ وقد احتفظ لنا « فاجنر » في رواياته الغنائية بما كان لتلك الطائفة من روح وبما أنتجوا من شعر ومن ملاح تمثيلية .

هَنَس سَخْس Hans Sachs

وأشهر تلك الطائفة من الشعراء هو « هَنَس سَخْس » (١٤٩٤ — ١٥٧٦) وهو من أهل نورنبرج ، وكان معاصراً للوثر وتابعاً من أتباعه ، كان سَخْس إمكافاً شاعراً ، لكن لا يذهب بنا الظن أن مثل تلك الصناعة في ذلك العهد كان مما يزرى بصاحبه ، فقد كان الصانع عندئذ صاحب عمل مستقل وعضواً في نقابة قوية تكسبه في الناس مكانة واحتراماً

كان سَخْس خصب الإنتاج في الشعر والنثر على السواء ، فقد أنشد ما يربى على أربعة آلاف أغنية ، وأنشأ ما يزيد على سبعمائة وألف حكاية وقصة استقى بعضها من الإنجيل . لكن سَخْس برغم هذا كله لم يكن شاعراً أو كاتباً من الطراز الأول ، بل أسرف في نقده ناقد الماني فقال إنه كاد يجعل من كل شيء حوله قصيدة ولكنه مع ذلك لم ينشئ قصيدة واحدة ! فلم يكن سَخْس إلى جانب معاصريه النوايع أمثال « رابليه » في فرنسا و « أريوستو » في إيطاليا سوى أديب متواضع

سباستيان برانت Sebastian Brant

ولا نستطيع أن نستعرض النهضة الأدبية في ألمانيا دون أن نذكر سباستيان برانت (١٤٥٧ — ١٥٢١) لشهرة كتابه « سفينة الحمقى » . وفيه يعرض المؤلف أكثر من مائة صورة

(١) راجع الفصل الخاص بالأدب الألماني الوسيط في الجزء الأول من قصة الأدب في العالم .

للحماقة البشرية ، تشيع فيها السخرية ، وكلها ترمى إلى غاية خلقية ، وقد كان لهذا الكتاب أثر بليغ في الأدب الذي يعرض سخرى الإنسان وغفلته ، فلم يحض على إخراجه خمسة عشر عاماً حتى نشر إرزم سنة ١٥٠٩ كتابه « امتداح الجنون » الذي أهده إلى زميله الأديب الانجليزى المشهور « السير توماس مور » — وسيأتى ذكره فى النهضة الانجليزية — وقد ترجم الكتاب إلى الانجليزية إسكندر باركلى (١٤٧٥-١٥٥٢ تقريباً) الأديب الاسكتلندى

آثار موج الأدب الشعبى

على أنه إلى جانب هذا نشأت أساطير شعبية ، منها أسطورة « الدكتور فاوست » التى كان أول ظهورها عام ١٥٨٧ ثم ضربت بجذورها بعدئذ فى آداب العالم ، فأخرج « مارلو » الشاعر الانجليزى بعد ذلك بعام واحد روايته « الدكتور فاوست » ، ثم أخذت القصة تلعب بخيال الأدباء حتى أدركها « جيته »^(١) الشاعر الألمانى العظيم فرفعها إلى أعلى ذراها ، كذلك أضاف الأدب الشعبى الألمانى إذ ذاك شخصية مزّاح مهرّج لم تلبث أن أصبحت شخصية عالمية فى الأدب ، وهى تيّل أيلنشيبيجل Thill Eulenspiegel ومعنى أيلنشيبيجل الحرفى « صرّاة البوم » ، وهى شخصية فلاح ذاعت عنه بين الشعب الألمانى « حكايات » يعبث فيها بالأسماء والفرسان والقسس وأرباب الحرف ، وقد دونت حكاياته لأول مرة بلهجة ألمانيا العليا ، ثم انتشرت فى أوروبا كلها حتى لقد تحوّر الاسم فى اللغة الفرنسية فأصبحت كلمة (Espiègle) وصفاً للأطفال الأشقياء ، ومن أهم ما تتميز به حكاياته تنفيذ ما يصدر إليه من أوامر تنفيذاً حرفياً بغير فهم ، فإذا أرسله سيده لشراء مشمش مثلاً ذهب أيلنشيبيجل واشترى من خادم الجيران قطه « مشمش » وأحضره للسيد . وهكذا

فإذا أردت أن تلمس النهضة الأدبية فى ألمانيا ، فلا تلمسها عند أفراد نوابغ ، بل أدر بصرك إلى الحركة الشعبية التى كان أثرها ظاهراً فى طبقات الناس جميعاً ، فألوف وألوف من الأدباء الهواة بين صفوف الشعب ومن غمار الصنائع أخذوا ينشئون الأغاني

(١) ترجم الدكتور محمد عوض محمد الجزء الأول من قصة فاوست لجيته إلى اللغة العربية .

ويتفنون بها ، وقد يكون تمليل هذه الظاهرة الأدبية في ألمانيا تغلغل الموسيقى في نفوس الشعب ، حتى إنك لترى الألمان يفرضون على صغارهم فرضاً أن يتعلموا في طفولتهم أصول الشعر والموسيقى

وأيا ما كانت الحال ، فإن العبقرية الأدبية عند الألمان لم تظهر إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أما القرن السابع عشر الذي ازدهر فيه الأدب في فرنسا وإنجلترا ، فكان عهداً مظلماً في ألمانيا ، ولعل حرب الثلاثين سنة - التي امتدت حتى ١٦٤٨ أن تكون قد أصابت ألمانيا بالجذب والعقم ، وأي غرابة في هذا الزعم ، وهي حرب أطاحت برءوس الشباب وأثقلت نفوس الشيوخ ؟

كما أن من المؤرخين من يرى أن حركة الإصلاح الديني التي قام بها لوثر قد أخرجت ظهور النهضة في ألمانيا وتفتح النفوس لنتاج ثقافي حر جديد ، وذلك لما هو معلوم من أن حركة لوثر كانت تسعى إلى بعث المسيحية في حالتها القديمة بما تحمل من صرامة . والبروتستانت لا يزالون حتى اليوم ينفرون من كثير من الفنون ، وتخلو معابدهم من كافة الصور والتماثيل . يقول هذا النفر من المؤرخين إن حركة الإصلاح الديني قد أخرجت ظهور النهضة في ألمانيا قرنين كاملين ، وجعلت من هذين القرنين امتداداً للعقلية المدرسية (Scolastique) التي سادت في القرون الوسطى بما عرف عنها من تزمت وضغط على الحرية الفكرية ، وهذا رأي لا نناقشه هنا ، ولكننا نميل إلى التسليم بوجاهته . فسراج النهضة الذي اشتعل وتوهج في سائر الدول الأوروبية كان ضوءه خامداً في ألمانيا فلم تنتج إلا أدباً هزيباً ضعيفاً .